

اشكالية الدين والثقافة والتغيير الاجتماعي من منظور فكر مالك بن نبي The problem of religion, culture and social change from the perspective of Malik bin Nabi thought

اسم ولقب المؤلف الأول : فوزية عبو

اسم ولقب المؤلف الأول : فؤاد بداني

تاريخ النشر: 2020 / 08 / 01	تاريخ القبول: 2020 / 07 / 24	تاريخ الإرسال: 2020 / 07 / 18
ملخص: نحاول من خلال هذه الورقة البحثية التنقيب في ثلاث عناصر مهمة في فكر مالك بن نبي وهي : الدين الذي يقوم بدور ضبط وتنظيم طاقة الإنسان الحيوية بما يتناسب ومتطلبات هذه المبادئ الروحية الجديدة ، وكذلك عنصر الثقافة التي شكلت حقلا خصبا في دراساته باعتبارها عنصرا أساسيا في تشكيل ما اطلق عليه اسم الحضارة ، اما عنصر التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي ركز على شروطه التي حددها في الوعي بمنطق التاريخ والارتفاع بحلول المشكلات التي تواجه عملية بناء الحضارة إلى هذا المستوى ويرى من الشروط المهمة هو مواجهة مشكلاتنا بالتخطيط، سنحاول الاجابة عن النقاط التي أثارها مالك بن نبي وهي : تصوره للعلاقة بين الدين والاقتصاد والسياسة وكذلك نظره الى الثقافة وما واقعها في العالم الاسلامي .		
الكلمات المفتاحية: الثقافة، الدين، التغيير الاجتماعي، الحضارة، الديمقراطية السياسية والاجتماعية		
Summary : Through this research paper, we try to explore three important elements in the thinking of Malik bin Nabi, namely: Religion, which plays the role of controlling and regulating human vital energy in a manner commensurate with the requirements of these new spiritual principles, As well as the element of culture that formed a fertile field in his studies as an essential element in shaping what he called the civilization, As for the element of social change in the thinking of Malik bin Nabi, he focused on his conditions, which he outlined in awareness of the logic of history and the rise in solutions to the problems facing the process of building civilization to this level. We will try to answer the points raised by Malik bin Nabi, namely: his conception of the relationship between religion, economics and politics, as well as his view of culture and its reality in the Islamic world.		
Keywords : Culture, religion, social change, civilization, political and social democracy		

* فوزية عبو ، أستاذ محاضر ب، الدكتور مولاي الطاهر ، علوم الإعلام والاتصال .

* فؤاد بداني، أستاذ محاضر "أ"، علوم الإعلام والاتصال.

مقدمة:

يتسم فكر مالك بن نبي بالتنوع في المضمون والأفكار التي طرحها في مؤلفاته محاولا إعطاء أكثر تحليل ورؤية حول الواقع الاسلامي واهتمامه بقضايا الاقتصاد والسياسة من خلال ربطهما بالدين الذي اكد بن نبي على انه غير من ملامح المجتمعات وقد تميز فكره بانتقاد كلا من نظامين الاقتصادي الرأسمالي والنظام السياسي الديمقراطي وتناوله للفكر الاسلامي كبديل وكنظام باستطاعته تطوير البشرية كما يمكن ادراج تحليلاته في مجال الاقتصادي ضمن دائرة الاقتصاد الاسلامي لأنه يرجع جميع مراحل بحوثه إلى الشريعة الإسلامية ، كما قد شكلت الثقافة كمفهوم حقلا خصبا للدراسة عند مفكرنا بن نبي باعتبارها عنصرا ساسيا في تشكيل ما اطلق عليه اسم الحضارة حيث يجمع اغلب المنظرين العلماء في جل التخصصات على أن الثقافة هي المجال الاجتماعي لجميع الأفراد في قومية من القوميات أو في وطن من الأوطان ، بحيث يرون أن الثقافة كتعبير أدبي أو فني أو كطريقة خاصة في الحياة إنما هي في الحقيقة انعكاس للعمل الاجتماعي الذي يبذله شعب من الشعوب بكافة فئاته وطوائفه ومظهر لما يتضمنه هذا العمل الاجتماعي من علاقات متشابكة وجهود مبذولة واتجاهات ، فالأساس الذي تقوم عليه الثقافة إذن ليس شيئا جامدا ، أو عقيدة محددة وإنما هي عملية لها عناصرها المتفاعلة واتجاهاتها المتطورة¹.

وتعتبر الثقافة الإسلامية تلك الثقافة المشتركة للشعوب الإسلامية والتي اختلفت صورها من مجتمع إلى مجتمع ومن جيل لآخر إلا أنها تشترك في السمات الإسلامية ، ولا تتعارض بطبيعة الحال مع العقيدة الإسلامية . وما عداها لا ينتمي إلى الثقافة الإسلامية وإن ظل إلى جوارها. وعليه سنحاول في هذه الدراسة أن نقدم وجهة نظر احد المفكرين الجزائريين والذي حضي فكره بالدراسة لكافة جوانبه فقد عالج المفكر "مالك بن نبي" مشكلة الثقافة في العديد من مؤلفاته مركزا بذلك على ماهية الثقافة بصفة عامة بعدما تضاربت الآراء والاتجاهات بين المفكرين الغربيين والمسلمين ، إلا أن المفكر مالك لم يتعمق إلى الثقافة في العالم الإسلامي والعربي بشكل موسع وواقعها في ظل ما مر عليه من محطات

¹ محمد سيد محمد : "المسؤولية الإعلامية في الإسلام " ط.2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 ، ص 53

تاريخية كان لها وقع كبير على محاولة تغيير ثقافته وطمس هويته بشق السبل والوسائل . وسنحاول معالجة بعض النقاط الفكرية من خلال الاسئلة الاتية :

✍ كيف تصور بن نبي العلاقة بين الدين والاقتصاد والسياسة ؟

✍ ما هو موقع الانسان داخل النظام الاجتماعي ؟

✍ كيف ينظر مالك بن نبي الى الثقافة ؟ وما هو واقعها في العلام الإسلامي ؟

اولا: الدين في ظل النظام الاجتماعي :

لقد ارتبط اسم مالك بن نبي بكلمة حضارة حيث مثلت مشكلاتها عنده مركز كل اهتماماته الفكرية إذ لا يخلو هذا المفهوم من دور المؤسسة الدينية أو الممارسات الدينية باعتباره الإطار المرجعي للمجتمعات الغربية والعربية على حد سواء.

يعتبر المفكر مالك بن نبي من بين الأقطاب البارزة في علم الاجتماع والفلسفة من خلال القضايا التي تناولها في مشواره البحثي حول مفهوم المجتمع المتغير والمتحضر الذي يفسر على أن هناك حدث تاريخي طارئ أو ما يسميه التحضر أي التوجه نحو مرحلة الحضارة التي تقوم على عناصر ثلاثة أساسية في كسر الآلية المغلقة التي تحكم المجتمع الساكن المتمثلة في (الإنسان ، التراب ، الزمن) لتعيد تنظيم المجتمع، ويسلط الضوء على عامل الدين كطرف مهم في هذه العملية الديناميكية حيث يصبح الدين البديل الوضعي الزماني ليربط بين العناصر المذكورة سالفا¹ ويحركها كما حصل في الحضارة الإسلامية التي كان أصحابها قبلا في مرحلة الجاهلية ليجدوا أنفسهم في ظل الدين الجديد – الإسلام- المنزّل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يغير من صفاتهم الجاهلية وبذلك تغير كبير على مستوى العلاقات الاجتماعية بين الأفراد ليصبح السيد والعبد في نفس الطبقة والمرتبة لينطبق على هذه المرحلة بميلاد الفكرة الدينية ثم تأتي مرحلة تسجيل هذه الفكرة الدينية في نفوس الأفراد .

يقوم الدين بدور ضبط وتنظيم طاقة الإنسان الحيوية بما يتناسب ومتطلبات هذه المبادئ الروحية الجديدة² التي تتضمن قيم تهدف إلى تهذيب الإنسان الذي وضع نفسه بين خالقه ليسمو

¹ محمد بغدادى باي ، التربية و الحضارة (بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في نصوص مالك بن نبي) ، عالم الافكار للنشر والتوزيع ، الجزائر، ط 2 ، 2007 ، ص ص 51/52.

² محمد بغدادى باي، نفس المرجع السابق ، ص 57.

فوق درجة النوع أي يسمو فوق حيوانيته من خلال النصوص الدينية التي تتكفل بتطويع الفرد ويصبح مكيفا لينتقل إلى مراتب الإنسانية لتكون هناك روابط وشبكة علاقات اجتماعية تقود المجتمع إلى تحقيق شكل من أشكال الحياة الراقية بحيث أنها تتوافق مع الشروط التي تملها الفكرة الدينية¹، ويشير مالك بن نبي بأن دور الدين في الحياة الاجتماعية انطلاقاً من تشكل ما يسميه بالحس الديني المشترك لتكون هناك وحدة في تصور و أهداف الأفراد التي يجمعهم الرابط المقدس الغير قابل للتمرد عليه .

أما في علاقة الدين بالسياسة باعتبارها جزء من النظام الاجتماعي للمجتمعات وفي هذا الصدد نجد مالك بن نبي يتناول مفهوم الديمقراطية وفي المقابل كطرف آخر مفهوم الإسلام ليكون له موقف رفض الجمع بين المفهومين في مفهوم ديمقراطية الإسلام من خلال إعادة النظر في تعريف كليهما و ضبطهما بشكل محدد وفق الأسس والمرجعية لاستنتاج وجود أي نوع من القرابة أو نقاط الالتقاء بينهما موضحاً على أن الديمقراطية من ناحية دخوله في القاموس العربي تعتبر كمفردة مستوردة أما بالنسبة للإسلام فقد أخذ بحديث لأبي هريرة ليعرفه : "عن أي هريرة أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يوماً بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشي فقال يا رسول الله ما الإيمان قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر، قال يا رسول الله ما الإسلام قال الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان"². إن المفكرين أمثال مالك بن نبي دائماً لديهم رؤية خاصة للمواضيع المتناولة في البحث العلمي حيث يخلص إلى أن الإسلام يحتوي على الديمقراطية الاجتماعية من خلال تقسيمه لها وفق ثلاثة شروط وهي

1- الديمقراطية كشعور نحو الأنا

2- الديمقراطية كشعور نحو الآخر

3- الديمقراطية كمجموعة الشروط الاجتماعية والسياسية اللازمة لتكوين وتنمية الفرد

* مؤكداً على أن هذه الشروط تمثل كل الاستعدادات النفسية التي يقوم عليها الشعور الديمقراطي في المجتمع المتحقق عند اخراج هذا الشعور الديمقراطي من القيود التاريخية والسياسية والاتجاه للتعبير عنه بعلم النفس وعلم الاجتماع والتركيز على فلسفة الوعي بالآخر الذي ادا فقد فقدت

¹ المرجع نفسه ، ص ص 65/66.

² حسن موسى محمد العقبي ، مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة ، ماجستير ، غزة ، 2005، ص ص 129/130.

الديمقراطية معناها البنائي و لقياس الديمقراطية سلط بن نبي الضوء على مفهوم الحرية استدل به للوصول إلى إثباته في توضيح أن الإسلام ديمقراطي يعبر عن ديمقراطية اجتماعية مبرهنا ذلك بالحديث : عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله يقول " من لطم مملوكه او ضربه فكفارته أن يعتقه " و يذهب باخذ المفهوم في جانبه السياسي عند الحديث عن الديمقراطية السياسية فيقول انها موجودة في الاسلام مستشهدا بقوله تعالى " و شاورهم في الامر و اذا عزم فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين " ¹.

فقد وضع مالك بن نبي معادلة أساسها الجمع بين الديمقراطية اجتماعية و الديمقراطية السياسية لكي نستنتج الديمقراطية الإسلامية المبنية على الشورى واحترام المقدّس من النصوص الدينية والشرعية .

أما علاقة فكر مالك بن نبي بالاقتصاد فقد كوّن اطارا فكريا خاصا به لينظر الى القضايا الفكرية من زاويته الخاصة كباحث و مفكر سلط الضوء على موضوع الرأسمالية كنظام اقتصادي عالمي ومحلي ليقوم بانتقادها كونها تكرر الطبقة في المجتمع تظهر طبقة رأسمالية (مالكي وسائل الإنتاج) و طبقة العمال (الفئة المستغلة) حيث يعتبر هذه الوضعية عن حدوث صراع بسبب استغلال حرية الفرد كما يوضح ان مبدأ الحرية والمنفعة المادية ادى الى تعدي دول رأسمالية على حرية المجتمعات الأخرى باحتلال أراضيها بالقوة وما القارة الافريقية إلا نموذج عن مخلفات الدول الرأسمالية ، فقد ظهر تحكّم سلطة المال الى أكبر درجة ممكنة حيث همشت ولم تجعل مجال لمفهوم القيم الانسانية لتصبح العملة النقدية هي الطرف المتحكم في معاملات الافراد ² ، على غرار ما هو موجود في الاسلام كنظام اقتصادي فالمال لا يكون في ايدي قليلة بل يسعى الى تجزئته عن طريق توزيع الميراث وتحريم الربا واخراج الزكاة وتنظيم البيع و الشراء و القسط في الميزان الخ

ليخلص ان الرأسمالية لا تحترم القيم الانسانية من خلال فقدان وجود ترابط بين القيم الاقتصادية والاخلاقية وأصبحت الالة تتحكم في المجتمع وارتبطت السعادة بتحقيق المنفعة المادية واشباع الشهوات الغريزية فماتت الاخلاق والفضائل ليسود التفكير البراغماتي على المجتمع، فالرأسمالية تروج

¹ حسن محمد العقي ، نفس المرجع السابق ، ص 119/120.

² مالك بن نبي ، تأملات ، دار الفكر ، دمشق ، 1985 ، ص 86.

لفكرة الاحتكار أيضا بتقليل عملية الإنتاج أو زيادة من أجل تحقيق الندرة في السوق دون مراعاة حاجة الإنسان المستهلك لهذه السلعة.¹

ويؤكد بن نبي على أن الشيء الذي يمنع الدول المتخلفة من التقدم هو غياب قيمة الحس المشترك أي أن يدرك الفرد أنه عنصر داخل حركية اجتماعية في خطوة تجسيد الحضارة والمشاركة الفعالة في دفع عجلة التنمية والازدهار الاقتصادي.

الثقافة بين رواسب الماضي و طوارئ الحاضر في عالمنا اليوم :

- لكل مجتمع أو جماعة خصائص وميزات تشكّل هويّتها لتختلف عن باقي المجتمعات وتسمى تلك بالثقافة وهي من صنع التاريخ إلى حد ما، إن صح هذا القول على الكلمات فيمكن التحقق منه فيما يتعلق بلفظة "ثقافة" على وجه الخصوص، إن وزن الكلمات ثقيل بعلاقته مع التاريخ الذي صنعها والتاريخ الذي تساهم في صناعته، ففضية ثقافة أو بالأحرى ثقافات تشهد انبعاثا رهنا سواء على الصعيد الفكري، نظرا لحيوية النزعة الثقافية الأمريكية أو على الصعيد السياسي، ولم تشهد فرنسا حديثا عن الثقافة كما تشهده اليوم حول وسائل الإعلام والشباب والمهاجرين... الخ وهذا الاستخدام الفوضوي لكلمة "ثقافة" يشكل وحده معطى اثنولوجيا.² إن اختراع مفهوم الثقافة يكشف في حد ذاته عن مظهر أساسي من مظهر الثقافة التي تحقّق في كنفها هذا الاختراع، والذي سنطلق عليه اسم الثقافة الغربية لعدم وجود مصطلح آخر أكثر ملائمة منه، وفي المقابل من المثير ألا نجد مقابلا لكلمة ثقافة culture في أغلب اللغات الشفوية للمجتمعات الأخرى والعربية خاصة.³

- إن تطور أية كلمة يستند إلى عدة عوامل ليست ذات طابع لغوي، وميراثها اللغوي يخلق نوعا من الارتباط بالماضي في استخداماته المعاصرة. فقد تطورت كلمة ثقافة في اللغة الفرنسية منذ القرون الوسطى حتى القرن التاسع عشر والتي يعود تشكل معناها إلى عام 1700 بحيث تعود في أصلها إلى

¹ حسن موسى محمد العقبي، نفس المرجع السابق، ص 122.

² Auge Marc ; « L'autre proche » in Segalen Martine (éd) L'autre et le semblable ; regard sur l'ethnologie des sociétés contemporaines ; presses du CNRS ; paris ; 1988. pp 19/34

³ دوني كوشي : "مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية"، دراسة، تر: قاسم مقداد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002، ص 12.

اللغة اللاتينية CULTURA التي تعني رعاية الحقول أو قطعان الماشية ثم ظهرت في القرن الثامن عشر لتدل على جزء من الأرض المزروعة .

في بداية القرن السادس عشر لم تعد هذه الكلمة تدل على حالة (الشيء المزروع) بل على فعل (أي فعل زراعة الأرض)، لم تبدأ كلمة ثقافة بفرض نفسها مجازيا إلا في القرن الثامن عشر، ودخلت معناها هذا معجم الأكاديمية الفرنسية (في طبعة 1718) ومثل ذلك ألحق بها المضاف وصار يقال "ثقافة الفنون"، "ثقافة الأدب"، "ثقافة العلوم"، و شيئا فشيئا تحررت كلمة ثقافة و انتهت بها الأمر إلى أن استعملت للدلالة على "تكوين" و "تربية" العقل أو النفس .¹ أما في ألمانيا فقد ظهرت كلمة (Kultur) بالمعنى المجازي في اللغة الألمانية في القرن الثامن عشر، وبدأت كأنها نقل أمين للكلمة الفرنسية culture وكان لاستخدام اللغة الفرنسية و(الذي كان علامة مميزة للطبقات العليا لألمانيا آنذاك) وتأثير عصر الأنوار اكبر الأثر على ذلك النقل.²

أما عند العرب فتعني كلمة ثقافة: كلمة أو مصطلح "ثقف" في اللغة العربية قَوْم "الشيء" أي قَوْمه عندما كان معوجا وغير سوي، فقال العربي "ثقف الرمح" أي قَوْمته.³

أما اصطلاحا : هي ذلك التراث الحضاري و منهجية التفكير وأسلوب العيش والمعاملة أي تلك الأمور التي تنطلق من ذاتية وشخصية الإنسان بما هو عليه من صفات كالخير والعدل ،وتلك الطاقة العملية الكامنة التي تستخدم في مجالات الحياة التي تميز مجتمع عن مجتمع آخر .

ماهية الثقافة عند مالك بن نبي:

أثارت كلمة ثقافة فكر مالك بن نبي مما جعله يتحدث عنها بإسهاب و عن مميزاتها وأثرها في الحياة في العديد من مؤلفاته، فقد عالج مالك عملية التعريف حيث يرى أن الشيء كي يصبح معنى لابد أن يكون له اسم وفكرة ليرتقي بذلك إلى مفهوم ، حيث يرى أن الثقافة هي "مجموعة من الصفات

¹ دوني كوشي، نفس المرجع السابق ، ص 14.

² المرجع نفسه، ص 15

³ أسعد السحمراني: "ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة"، دار النفائس ، 2002 ، ص 82.

الخلقية والقيم الاجتماعية ، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لاشعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه ¹.

ويقصد بالصفات الخلقية والقيم الاجتماعية هو كل ما يتلقاه الفرد منذ ولادته كرأس مال أولي في الوسط الذي خلق فيه ، بحيث يرى مالك أن مشكلة الثقافة في العالم الإسلامي سببه أن أغلب الناس يخلطون بين كلمة ثقافة وكلمة علم وبين مفهوم ثقافة ومفهوم علم ، وليست الثقافة في الإطار المعنوي والمادي الذي يحيط بالفرد ويؤثر في سلوكه وفي أسلوب حياة مجتمعه تأثيرا إيجابيا أو سلبيا فمالك بن نبي يرى أن مشكلة الثقافة بالنسبة للعالم الإسلامي عامة والعالم العربي خاصة تكمن في الكيفية التي يتم فيها تصور العناصر الآتية: المبدأ الأخلاقي، الذوق الجمالي، المنطق العملي، الفن أو الصناعي في وحدة متجانسة أو برنامج تربوي ، "فالعالم الإسلامي والعربي يختلف في موقفه من الثقافة في العالم الليبرالي والعالم الشيوعي ، فليست المشكلة منحصرة في محاولة فهم "الثقافة" وإنما في تحقيقها بصورة عملية " ولفهمها عملية على حد قوله لابد من تركيب عناصرها وإتمام هذه العناصر لابد من شروط لها هي إيجاد صلة بين عالم الأشخاص طبق منهج تربوي بصورة فلسفية أخلاقية ، فالقيمة الثقافية للأفكار والأشياء تقوم على طبيعتها علاقتها بالفرد ، فالصلة الثقافية هي تلك الصلة التي تمنح الأفكار والأشياء قيمتها الذاتية والموضوعية في إطار معين ، فلولا العلاقة الموجودة بين كل هذه العناصر لما اكتشفت الجاذبية ولكانت التفاحة حينئذ كومة صغيرة من الروث بعد أن أكلها نيوتن بكل بساطة.

وتشمل الثقافة في معناها العام الذي تصوره ابن نبي إطار حياة واحدة هي تفرق عن العلم ، ولا تشكل جزءا منه أورديفا تابعا له ، فهي أكثر أهمية وفاعلية من العلم واعتبر هذا الأخير ، عنصر من عناصر تصوره للثقافة ، منحاز إلى هيمنة الثقافة على العلم وتفوقها عليه محاولا الكشف عن الفروق الأساسية ما بين العلم ولا علم .

كما انه ربط الثقافة بالحضارة من جهة كونها محيطا يحيط بالإنسان وإطارا تتحرك داخله " فهو يغذي جنين الحضارة في أحشائه ، أنها الوسط الذي تتشكل فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر " ²

¹ مالك بن نبي : "مشكلة الثقافة"، تر: عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، 2000 ، ص 74.

² مالك بن نبي : مشكلة الثقافة ، مرجع سبق ذكره ، ص 77.

وإن ارتبطت كلمة ثقافة وحضارة ببعضهما أحيانا ، إلا أنهما غير متكافئتين ، فكلمة ثقافة أكثر دلالة على التطورات الفردية أما كلمة حضارة فتدل على التطورات الجماعية .¹

مكونات الثقافة في نظر مالك بن نبي:

أما مكونات الثقافة عند بن نبي فهي تتجلى في التراكيب الجزئية المكونة لها والتي تمثلت في: الأخلاق، الجمال، المنطق العملي، الصناعة ، وهي العناصر الأضعف تفعيلا في العالم الإسلامي والعربي فحسبه ضعف الأخلاق وغياب المنطق الواعي بالضمير الجمعي وسقوط مستوى الجمال والذوق العام نتيجة طغيان المادة والابتعاد عن الحياة الروحية الدينية وضعف الصناعة في المأكل والملبس وضروريات الحياة عطل من صنع حضارة قوية بل من نتاج ذلك نشوء تجمّعات انسانية متفرقة متناحرة و منغلقة على تراث مادي بالي يشد المجتمع للتخلف والرجعية الضعيفة لا إلى المرجعية القويّة.

أما الأخلاق ، فقد عالج مالك بن نبي الأخلاق من الناحية الاجتماعية لا الفلسفية لأنه يريد تحديد قوة التماسك بين الأفراد بغية تكوين وحدة تاريخية و اسماء بشبكة العلاقات الاجتماعية بحيث يرى أنها " مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية التي توفر الصلات الضرورية داخل العوالم الثلاث: الأشخاص والأفكار والأشياء.² بحيث يقول " إذا ما تطور مجتمع ما على أية صورة ، فإن هذا التطور مسجل كما وكيفا في شبكة علاقاته الاجتماعية في صورة توتر أو ارتخاء في التوتر أو في تفكك الشبكة نهائيا عند مرحلة أفول المجتمع.³ بحيث أن بناء شبكة العلاقات الاجتماعية تعد أول عمل تاريخي يقوم به المجتمع، إذ أن ميلاده مرهون باكتمال وتلاحم هذه الشبكة داخل النسق الاجتماعي في إطارها الثقافي والاقتصادي والسياسي.

والجمال : يرى مالك أن للجمال أهمية اجتماعية كبيرة وله تأثير في الروح الاجتماعية من منطلق أن "الأفكار هي المنوال الذي تنسج عليه الأعمال ، وهي تتولد من الصور المحسوسة الموجودة في الإطار الاجتماعي ، فتنعكس في نفس من يعيش فيه ، فللجمال تأثير كبير في حياة الإنسان وهو الإطار الذي تتكون منه وهو وجه الوطن في العالم ، ونقصد هنا بالتوجيه الجمالي المحافظة على البيئة ونظافة

¹ دوني كوشي ، مرجع سبق ذكره، ص 14.

² مالك بن نبي: "ميلاد المجتمع"، ط 6، دار الفكر، سوريا، 2006، ص 27.

³ مالك بن نبي ، المرجع سابق، ص 42.

المحيط و مظهر الفرد ، ففي موسكو مثلا صدرت بعض الأوامر تلزم سكانها "بأن يراعوا يقظة نظافة مدينتهم وإلا فهم مهددون بفرض غرامة تبدأ من 25 إلى 100 روبل على كل من يبصق في الشارع أو يلقي بأعقاب "السجائر" على الرصيف أو يعلق ملابسه في الشباك المطل على الشارع أو يلصق إعلانات على الحوائط أو من يركب السيارات العامة بملابس العمل المتسخة".¹

وبعدها أكد على المنطق العملي: و المقصود به هو كيفية ارتباط العمل بوسائله ومقاصده ، لذلك يرى مالك أن المسلم يفتقد لهذا المنطق في حياته رغم انه منطق الفكرة وهي تعاليم دينه الإسلامي ، كما تحدث عن مفهوم المتعلمين أو الإنسان المتعالم والذي يقصد به حرفة التعلم بحيث يقول أن الأمة الإسلامية كانت في السابق تعاني من مشكلة الجهل والأمية ، لكن حاليا ظهر مرض جديد مستعصيا هو التعالم ، والذي يعتبره مريض لم يتقن العلم ليصيريه ضميرا فعالا بل ليجعلها آلة للعيش وسلما يصعد به منصة البرلمان وهكذا يصبح كلاما مجردا ليس من شأنه أن يتحول إلى عمل ونشاط إلا ما نذر. "و يعطي مالك الحل لمشكلة المتعلمين، في ضرورة تنظيفها من الانحراف وذلك بتصفية العادات والحياة مما يشوبها من معوقات للنهضة المتمثلة في المتعلمين ويرى أن التوجيه مرتبط بالمفاهيم الفكرية المؤسسة على أصول ثقافية والثقافة الإسلامية هي الأساس في كل تغيير"،² ولم ينس التوجيه الصناعي: ينظر مالك إلى أنها وسيلة للمحافظة على كيان المجتمع واستمرار نموه ، بحيث يرى أن الأفكار هي التي تصنع الأشياء وأعطى مثالا عن ذلك عن دولة ألمانيا "يقول كيف أن بلدا شهد الانهيار الكامل لعالم أشيائه قد استطاع باحتفاظه بعالم أفكاره أن يبني كيانه من جديد".³

أما روايت الماضي هي عند مالك بن نبي :

* الاستعمار: يعد عامل الاستعمار لسبب رئيسي في ما آلت إليه الثقافة اليوم في العالم العربي والإسلامي، إنما جاءت نتيجة حتمية للاضطهاد الرهيب التي تعانيه الثقافة في هذه المنطقة من طرف الاستعمار، فقد تفنن هذا الأخير في كل الأساليب الممكنة لتجريد الأمة الإسلامية من هويتها الثقافية

¹ مالك بن نبي: "مشكلة الثقافة"، المرجع السابق، ص 84.

² العابد مهبوب: "مفهوم التنمية في فكر مالك بن نبي"، مجلة علوم الإنسان والمجتمع ، جامعة زيان عاشور بالجلفة ، الجزائر ، 2 جوان 2012، ص 156.

³ مالك بن نبي: "مشكلة الثقافة"، مرجع سبق ذكره ، ص 44.

، وإبداله بثقافة مسيحية غربية جديدة مما جعل جيل الشباب الذي كان الاعتماد عليه في بعث الأدب العربي لينصرف عنه انصرافا كلياً إلى الآداب الأجنبية ، فأضحى هذا الجيل يمجّد آدابهم واختراعاتهم وبالرغم من هذا فإن بعض البلدان استماتوا في الحفاظ على لغتهم وتشبثوا بها لتبقى ، فقد كانت بالنسبة إليهم جزء لا يتجزأ من كيانهم الروحي الإسلامي ، ويرجع الفضل في ذلك إلى الكتابات القرآنية البسيطة والزوايا التي كانت أشبه بالشموع الخافتة المتناثرة في مهب الريح العاصفة ، غير أن المراكز التعليمية بوسائلها المحدودة وثقافتها التقليدية لم تكن لتنهض بالأدب العربي في تلك الفترة ، ومن ثم كانت النتيجة تفشي الجهل في أغلب البلدان ، حيث يرى مالك " انه ليس من شك بأن تلك الأفعال الاستعمارية من اقتلاع وتدمير وتغيير وتغريب كانت لها الآثار السلبية والتخريبية على المجتمع والإنسان في مختلف الإبعاد الأخلاقية والنفسية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها" ¹ عرف العالم الإسلامي أثناء الفترات الاستعمارية التي مرت عليه ركوداً وجموداً في مجال الفكر وذلك ما حدث " في القرن التاسع عشر ، فإن أحداً في ذلك المجتمع لم تكن لديه قدرة ما على استنطاق فكرة ابن خلدون لأن ذلك المجتمع لم يكن قد أسس نشاطه العقلي والاجتماعي على اهتمام اسمي ، ومنذ ذلك العصر كان المسلم ينزلق على سطح الأشياء دون أن يغور خلالها بجانب الأفكار دون أن يتعمقها لأنه لم تعد له علاقة بهذه أو تلك ² .

فلم يعد ينتج عن لقاءه بالحياة الاجتماعية تلك الصدمة القوية التي تغير أسلوبها كما تغير سلوكه و بعد تخليهم عن الأفكار وقيمتها اهتموا بالأشياء حتى أصبح أغلبهم يظنون أن الثقافة هي فقط العمران واللباس والموضة ومواكبة التطورات الراهنة من أجل الركب الحضاري واللاحق بالدول العربية و الروبية دون معرفة مصدر هذا التطور بعيداً عن العلم والفكر والرجوع إلى القرآن ، "فالكثير من العلماء الفرنسيين والألمانيين والأمريكيين الذين جاھروا إسلامهم بمجرد اكتشاف علمي توصلوا إليه من خلال القرآن الكريم" ³ فالمسلم سبب عقدة تخلفه يرد هذه المسافات إلى نطاق الأشياء ، أو بتعبير آخر يرى أن تخلفه متمثل في نقص ما لديه من مدافع وطائرات ومصارف .

¹ مالك بن نبي : "أفاق جزائرية" ، ط2 ، مكتبة عمار ، مصر ، 1964 ، ص 23 .

² مالك بن نبي : "مشكلة الثقافة" ، نفس المرجع السابق ، ص 48 .

³ بتصرف

إذ يرى وليام اجبرن أن تغيير الثقافة يبدأ في مجال الأشياء والأدوات ثم يمتد تأثيره فيما يعدل الجانب الاجتماعي " وهذا ما نلاحظه في العمران ، إذ استبدلت العمارة الإسلامية مثلا في مصر والشام والجزائر بلوحات الفن السريالي والطبيعة الحية العارية ، وذبح الماشية في السعودية والسودان جزء من الثقافة الإسلامية ولكن تقاليد التباهي والإسراف في الأفراح إنما مخلفات الاستعمار ، فمن منظور مالك أن الحل لهذه المشكلة انه "من واجباتنا تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلقي والاجتماعي مما فيه من عوامل قتاله ورمم لا فائدة منها ، حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة " ¹

ولن تتأتى هذه التصفية إلا بفكر جديد ، يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع ، يبحث عن وضع جديد هو وضع النهضة أي إعادة النظر في الإطار المرجعي للمجتمع.

* التكنولوجيا: إن ولوج عصر النهضة منذ القرن 16 جعل العالم يعرف تطورا سريعا في الميدان الاقتصادي والصناعي، كما أننا نعيش انقلابا جذريا في المجال التكنولوجي حيث تعددت تكنولوجيات الاتصال والإعلام والاتصال وتنوعت مضامينها وظهرت الكثير من الوسائل التكنولوجية المتطورة ، و مما لاشك فيه أن هذه الظاهرة ايجابية في حد ذاتها أعادت ترتيب العالم و خلقت خطوط اتصال وهمية ربطت البعيد بالقرب في قرية كونية على حد تعبير المفكر مارشال ماكلوهان ، بقدر ما هي ظاهرة سلبية ضربت مفهوم الثقافة في البلدان العربية والإسلامية على حد سواء عرض الحائط فانتشر مفهوم الغزو الثقافي أو ولوج ثقافات غريبة عن المجتمع الإسلامي جراء هذه التكنولوجيا أدت إلى زحزحة الثقافة الأصلية ، هذا ما أثبتته العديد من نظريات الاتصال كالنظرية الليبرالية ونظرية الغرس الثقافي .

فالأقمار الصناعية والتلفزيون الكابلي ومحطات الإرسال والاستقبال عملية قائمة على ربط نقاط متباعدة (عنصر المكان) بأكبر سرعة ممكنة (عنصر الزمان) ، وما تحدثه من أثر بالغ على البنيات والمؤسسات الثقافية في المجتمع في إحداث تغييرات في القيم والمفاهيم وطرائق السلوك والتفكير والعادات والتقاليد

¹ مالك بن نبي: "مشكلة الثقافة"، مرجع سابق، ص 71.

فهناك بعض العوامل التي صاحبت بروز ونمو، التطورات التكنولوجيات ابتداء من ظهور الإذاعة في العشرينيات ثم التلفزيون في الخمسينيات ووسائل الاتصال الحديثة مثل التلفزيون الفضائي والانترنت حاليا أبرزها :

-الجانب القيمي و الأخلاقي : "أثارت هذه الوسائل نوعا من التخوف تجاه ما يمكن ان تحدثه محتويات هذه الوسائل على البنيات الثقافية والتقاليد والسلوكيات خاصة ما يتعلق بحضور العنف والجنس في برامج التلفزيون والوسائل السمعية البصرية الأخرى".¹

حيث أثبتت العديد من الدراسات التي أقيمت في مجال تأثير وسائل الإعلام السليبي على الأفراد إلى أن عملية عدم التكافؤ في التدفق الإخباري وطبيعة المحتويات التي تبثها وسائل الإعلام انشغالا متزايدا من أن هذه الوضعية ستؤدي إلى القضاء تدريجيا على القيم التاريخية والحضارية في المجتمعات النامية ، "فمثلا يلاحظ أن الفيلم الأمريكي يستحوذ على 50% من زمن الشاشة المصورة في أكثر من 80 بلد و انه في كل لحظة زمنية من أي يوم هناك فيلم أمريكي يعرض في مكان ما في العالم ويظهر رد الفعل هذا بصفة بارزة في المحيط العربي الإسلامي في مختلف مجالات المعرفة ما فتئت تؤكد جدية و خطورة ما يمكن أن تنجم عنه هذه الهيمنة الثقافية"²

كترسيخ قيم الامتثالية والقضاء على التنوع الثقافي في المجتمع وإنشاء مجتمع استهلاكي يروج لبضاعات ذات طابع تجاري مرتبطة بالإنتاج الرأسمالي المريح.

والحقيقة أن تأثيرات وسائل الاعلام والاتصال المباشر لا يمكن إغفاله سواء تعلق الأمر بالمحتوى القادم من الخارج أو الذي نبثه نحن لمواطنينا من داخل دولنا العربية إذ تشير معظم النتائج و الدراسات إلى الإمكانيات الفنية الهائلة التي تتمتع بها المحطات الفضائية الأجنبية وما تقدمه من مواد إعلامية جذابة تخفي وراءها مخاطر عديدة يجعلها موضع اهتمام بعض الفئات من المواطنين وتكمن الخطورة في أن هذه الفئات تتمثل في الشباب حيث سادت في دولنا العربية مظاهر التقليد والمحاكاة للثقافة الغربية على نطاق غير محدود ، ويتمثل في عادات المأكل والملبس وممارسات الحياة اليومية

¹ عبد الرحمان عزي ، السعيد بومعيزة: "الإعلام و المجتمع رؤية سوسيولوجية مع تطبيقات على المنطقة العربية والإسلامية"، دار الورسم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010 ، ص 471.

² عبد الرحمن عزي، السعيد بومعيزة، نفس المرجع، ص 474.

والعلاقات الاجتماعية بين الناس وسيادة الحاجات المادية على المعنوية وزادت درجة الخطورة عندما ترجمت الأعمال الإعلامية الغربية إلى العربية وعرضها في محطاتنا التلفزيونية كالمسلسلات والأفلام و الرسوم المتحركة ، وبالرغم المخاطر العديدة للبث التلفزيوني المباشر ، تبقى حقيقة هامة وهي انه أصبح ضرورة تملئها ظروف العصر ، إذ لا يستطيع الفرد أن يعيش في عزلة في العالم لكن ما يجب فعله تجاه هذا الخطر الداهم هو تصحيح الطريقة التي نعامل بها كما فعلت الصين واليابان وحافظتا على هويتهم الثقافية ، بالإضافة إلى رسم سياسة إعلامية مشتركة تضع الخطط و المبادئ للتعامل مع هذه الظاهرة ، خاصة وأن هويتنا الثقافية لها جذور مستمدة وقواعدها من الدين الإسلامي .¹

خاتمة:

ان مالك بن نبي يضع فكرة بين أيدي الدول الإسلامية من خلال وضعه لمفهوم السياسي الاسلامي يركز على نقطة أساسية وهي العلاقة بين الدين والأخلاق إذ يرى أن العمل السياسي الناجح هو العمل المنظم الذي يمكن من خلاله تحقيق التجانس بين عمل الدولة وعمل الانسانية أي ان يكون الانسان هو محور العملية التطورية ليصل الى بناء حضارة تعترف بالأخروتتبني الحوار كآلية للتواصل بين الثقافات الأخرى كما اتجه مالك بن نبي في تحليله لمشكلات العالم الإسلامي اتجاهاً فريداً ، فهو يرجئ المشكلات القائمة إلى قضية هامة وأساسية ، استقاها من دراساته في علم الاجتماع فقد رأي "أن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته ، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية ، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها".

ففكرة مالك بن نبي تستهدف بلوغ المجتمعات مرحلة الحضارة ، ولكي يتحقق هذا يرى أن مشكلة الإنسان تبقى مفتاحاً في عملية التغيير الاجتماعي أو التحضر ، أي أن معرفة إنسان الحضارة وإعداده أشق وأصعب كثيراً من صنع محرك ، أما شروط التغيير الاجتماعي عند مالك فإن الوعي بمنطق التاريخ والارتفاع بحلول المشكلات التي تواجه عملية بناء الحضارة إلى هذا المستوى ويرى من الشروط المهمة هو مواجهة مشكلاتنا بالتخطيط وأيضاً من الشروط المتعلقة بالتغيير الاجتماعي أن نركز منطقنا

¹ فضيل دليو: "العولمة والهوية الثقافية " ، (سلسلة اعمال الملتقيات) ، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة ، جامعة قسنطينة ،

الجزائر ، 2010 ، ص ص 250/251.

الاجتماعي والسياسي والثقافي على القيام بالواجب أكثر من تركيزنا على الرغبة في نيل الحقوق، ومما يتصل بشروط التغيير الاجتماعي عند مالك فكرة التوجيه، أي توجيه الإنسان ومجالاته وأفول الانسان النصف كما سمّاه هو والذي يقصد به الفرد الذي يطالب بالحقوق ولا يؤدي الواجبات ، فمنطق الحضارة يبني على الأخذ والعطاء في بناءات المجتمع الإنمائية ، فالحضارة ليست معطى جاهز وإنما هي تراكمات لتضحيات أجيال سابقة من وقتها وجهدها في سبيل تحقيق الإنجاز الحضاري ، القوى القائمة على التغيير للأحسن والأقوى والثابت في أسسه ودعائمه المركزية .

ففكر مالك بن نبي في الثقافة والمجتمع والحضارة فكر نقدي لأوضاع المجتمعات العربية والمجتمع الجزائري كعينة من المجتمع الكبير الذي يمتد محاله إلى الإسلامي ثم العربي ، فكل ما قدّمه من تصوّرات لشروط النهضة وبناء الحضارة جاء نتيجة لعاملين وهما النقد للأوضاع الاجتماعية للدول العربية والإسلامية والعامل الثاني هو تشبّعه بمناهج وعلوم الحضارات الغربية ، كالمنطق والفلسفة والعلوم التجريبية وازمة المناهج ، وأسس التفكير العلمي النقدي .

كامل لا نسي في الأخير ما أحدثته وسائل الاعلام الجديدة بفعل تكنولوجيات الاعلام والاتصال وما عقّده من طرق التفكير العلمي حول محتوياتها وطرق تأثيرها السريعة والقويّة بل أقوى مما كانت عليه وسائل الاعلام الكلاسيكية ، فعالمنا اليوم يعيش تحت سلطة الوسيلة الاتصالية التي باتت تتحكم في مصائر شعوب وتحدد أنماط العلاقات الدولية بين المجتمعات وكرّست مفهوم العولمة الإعلامية والتأسيس لفكر اجتماعي جديد يعالج قضية الإنسان ذو البعد الواحد وما حدث من تنميط في الثقافات والطبائع والصنائع والعمل على تقريب العالم للعيش في نمط حياة اجتماعية واحدة قصرا وقهرا من المجتمعات المسيطرة على الثقافة والتربية والاقتصاد وعلى ريادة الفكر والبحث العلمي .

قائمة المراجع:

1. العابد مهبوب: "مفهوم التنمية في فكر مالك بن نبي"، مجلة علوم الإنسان والمجتمع ، جامعة زيان عاشور بالجلفة ، الجزائر، 2 جوان 2012.
2. العقبي حسن موسى محمد ، مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة ، ماجستير ، غزة ، 2005 .

3. السحمراني اسعد: "ويلات العولمة على الدين و اللغة و الثقافة" ، دار النفائس ، 2002.
4. بن نبي مالك: "مشكلة الثقافة"، تر: عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، 2000.
5. بن نبي مالك: "ميلاد المجتمع" ، ط 6 ، دار الفكر ، سوريا ، 2006.
6. بن نبي مالك: "أفاق جزائرية" ، ط 2 ، مكتبة عمار ، مصر ، 1964.
7. بن نبي مالك ، تأملات ، دار الفكر ، دمشق ، 1985.
8. بغداداي باي محمد ، التربية و الحضارة (بحث في مفهوم التربية و طبيعة علاقتها بالحضارة في نصوص مالك بن نبي) ، عالم الافكار للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ط 2 ، 2007.
9. سيد محمد محمد: "المسؤولية الإعلامية في الإسلام" ، ط 2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986.
10. كوشي دوني: "مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية" ، دراسة ، تر: قاسم مقداد ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2002.
11. عزي عبد الرحمان ، بومعزة السعيد: "الإعلام و المجتمع رؤية سوسيولوجية مع تطبيقات على المنطقة العربية و الإسلامية" ، دار الورسم للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 2010.
12. دليو فضيل: "العولمة و الهوية الثقافية" ، (سلسلة اعمال الملتقيات) ، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث و الترجمة ، جامعة قسنطينة ، الجزائر ، 2010.
13. Auge Marc ; « L'autre proche » in Segalen Martine (éd) L'autre et le semblable ;regard sur l'ethnologie des société contemporaines ;presses du CNRS ;paris ;1988.